

من أعلام التواصل الروحي بين الأندلس وتلمسان

الشيخ أبي مدين شعيب الإشبيلي

والشيخ الشوذري الحلوي

الأستاذ الدكتور عبد الحق شرف، جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر

ملخص:

نحاول من خلال هذه الورقة العلمية ، أن نبرز جانبا مهما من أطوار التواصل الأندلسي وحاضرة تلمسان ، من خلال لفت الانتباه لشخصيتين مهمتين كان لهما بالغ الأثر في توطيد أواصر الترابط الروحي والديني بين العدوتين ، وأعني بذلك الشيخ أبي مدين شعيب التلمساني ، وكذا الشيخ الشوذري الحلوي .

Of the scholars of spiritual communication

between Andalusia and Tlemcen

Sheikh Abu Madin Shuaib Al – Ashbaily and Sheikh Shuwahed sweets

Abstract: Through this scientific paper, we try to highlight an important aspect of the Andalusian communication and Tlemcen civilization, by drawing attention to two important personalities who had a profound impact on the consolidation of spiritual and religious bonds between the two enemies, namely Sheikh Abu Madin Shuaib Al-Tlemceni and Sheikh Al-Shuwahedi Al Halawi

مقدمة:

اشتهرت تلمسان بكونها الحاضرة السياسية والثقافية والعلمية ، التي احتضنت عددا كبيرا من المراكز الدينية والعلمية ، واستوطنها الكثير من العلماء والأدباء ، والصالح والأولياء .

ومن أشهر من دُكر من الصالح وتداولته المدونات التاريخية وكتب التراجم والمناقب بهذه الحاضرة ؛ الشيخ أبي مدين شعيب الإشبيلي الأندلسي والشيخ أبو عبد الله الشوذري الحلوي ؛ موضوع هذه الورقة العلمية .

أولاً: الشيخ أبي مدين شعيب الإشبيلي (520-594هـ)

هو أبو مدين شعيب بن حسين الأنصاري ، ولد عام 520 هـ بقطنيانة ، في الشمال الشرقي من إشبيلية ، غادر الأندلس في اتجاه المغرب الأقصى طلباً للعلم ؛ لأن وسطه العائلي منعه من تحقيق ذلك في الأندلس.

حلاه التليدي قائلاً: "وفي المائة السادسة أيام دولة الموحدين يأتي علم آخر من أعلام الصوفية ، وقطب من أ كبار أقطابهم ، ذلكم هو شيخ المشايخ وسيد العارفين ، وقدوتهم ، الإمام المشهور سيدي أبو مدين الغوث شعيب بن الحسن الأندلسي الفاسي البجائي. من كبار تلامذة أبي يعزى وعلي بن حرازم وعلي بوغالب...ومن معاصري القطب ابن مشيش ، والشيخ الأكبر ابن العربي الحاتمي ، وأبي العباس السبتي دفين مراکش وغيرهم"¹.

وقد ترجم له ابن الزيات التادلي فقال: "حدثني مُحَمَّد بن إبراهيم بن مُحَمَّد الأنصاري قال: سمعت أبا مدين يحدث ببدء أمره ويقول: كنت بالأندلس يتيما ، فجعلني إخوتي راعيا لهم لمواشبههم ، فإذا رأيت من يصلي أو يقرأ القرآن أعجبتني ودنوت منه وأجد في نفسي غما ؛ لأنني لا أحفظ شيئا من القرآن ولا أعرف كيف أصلي. فقويت عزيمتي على الفرار لأتعلم القراءة والصلاة ففررت...فذهبت إلى البحر وعبرت إلى طنجة ، ثم ذهبت إلى سبتة. فكنت أجيرا للصيادين ثم ذهبت إلى مراکش. فدخلتها وأدخلني الأندلس معهم في جملة الأجناد. فكانوا يأكلون عطائي ولا يعطونني منه إلا اليسير. فقيل لي: إن رأيت أن تتفرغ لدينك فعليك بمدينة فاس. فتوجهت إليها ولزمت جامعها ، وتعلمت الوضوء والصلاة وكنت أجلس إلى حلق الفقهاء والمُذكرين فلا أثبت على شيء من كلامهم إلى أن جلست على شيخ ثبت كلامه في قلبي. فسألت من هو ، فقيل لي أبو الحسن ابن حُرْزَم شخصية مقالنا السابق. ثم سمعت الناس يتحدثون عن كرامات أبي يعزى ، فذهبت إليه في جماعة توجهت لزيارته..."².

لازم أبو مدين شيخه أبا الحسن علي ابن حُرْزَم مدة كان يشتغل فيها في أوقات معينة مع النساخين ليحصل على قوته ، بينما يقضي ليله في طلب العلم. قال الشيخ أبو مدين: "سمعت رعاية المحاسبي عن أبي الحسن بن حُرْزَم"³.

ومن شيوخ أبي مدين بفاس الفقيه أبو الحسن علي بن غالب المتوفى سنة 592 هـ ، دفين القصر الكبير ، قرأ عليه أبو مدين كتاب "السُّنن" لأبي عيسى الترمذي. ومنهم الشيخ أبو عبد الله الدِّقَّاق السجلماسي الأصل المدفون بمقبرة باب الجيسة (باب عجيسة) بمحروسة فاس ، أخذ عنه أبو مدين علم التصوف.

كذلك أخذ الشيخ أبو مدين عن أبي يعزى يلنور بن ميمون دفين جبل إيروجان بتاغية ، وتلميذ الشيخ أبي شعيب السارية مؤسس رباط أزمور. قال عنه أبو مدين: "طالعت أخبار الصالحين من زمن أويس القرني إلى زماننا فما رأيت أعجب من أبي يعزى ، وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالي".

وذكر التادلي في التشوف رواية أخرى مفادها: قال أبو علي ؛ كان أبو مدين يقول: رأيت أخبار الصالحين من زمان أويس القرني إلى زماننا فما رأيت أعجب من أخبار أبي يعزى وينبغي أن تكتب بالذهب"⁴.

هذا ؛ ولقد استأذن أبا مدين شيخه أبو يعزى لأداء مناسك الحج. وفي جبل عرفات التقى بالشيخ عبد القادر الجيلاني. فقرأ عليه بالحرم ، وكان أبو مدين يعده أفضل مشايخه الأكابر.⁵

ويشير المقري في نفحه أن أبا مدين كان بعد عودته من رحلته المشرقية واستقراره ببجاية ، إلى العزلة من أجل العبادة والتأمل⁶. وخلال الفترة التي استقر فيها ببجاية كانت هذه الأخيرة تمثل منارة علمية فريدة ، حيث كان الناس على اجتهاد وكان الأمراء لأهل العلم على ما يليق ويراد.

وبهذه المدينة مكث الشيخ أبي مدين زهاء خمسة عشر سنة ونيف ، وفيها تزوج وأنجب ولدا. حيث ذكر ذلك عرضا الشعراني في طبقاته قائلا: "وولده مدين هو المدفون بمصر بجامع الشيخ عبد القادر الدشطوطي ، ببركة القرع ، خارج السور ، مما يلي شرقي مصر ، عليه قبة عظيمة وقبره يزار"⁷.

وفي بجاية أيضا درس على يديه خلق كثير خاصة الفقيه أبو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي سنة 581هـ كتاب "المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى". ولما قيد كلامه في الشرح في اليوم الأول ، قال له الشيخ في اليوم الثاني: "لا أريد أن تقيد عني شيئا مما أقوله في هذا الكتاب"⁸.

ومن تلاميذه كذلك ؛ الشيخ أبي مدين المرموقين جعفر بن سيد بونة الخزاعي⁹. على أن أبرز وأشهر تلاميذ الشيخ أبي مدين هو الشيخ عبد الرزاق الجزولي دفين الإسكندرية.

ومن أبرز ما اتفق للشيخ أبي مدين هو حظوته عند علماء السلف وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية عندما حلاه تحلية خاصة قائلا: "مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة مثل سعيد بن المسيب والحسن البصري وعمر بن عبد

العزیز ومالك بن أنس والأوزاعي وإبراهيم بن أدهم وسفيان الثوري والفضيل بن عياض...ومن لا يحصى كثرة إلى مثل المتأخرين: مثل الجنيد بن مُجَدِّ القواريري، وسهل بن عبد الله التَّسْتُرِي، وعمر بن عثمان المكي ومن بعدهم، إلى أبي طالب المكي إلى مثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ عدي والشيخ أبي البيان والشيخ أبي مدين...وهذا هو سماع المؤمنين وسلف الأمة وأكابر المشايخ، كـمـعروف الكرخي، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ونحوهم. وهو سماع المشايخ المتأخرين الأكبر، كالشيخ عبد القادر، والشيخ عدي بن مسافر، والشيخ أبي مدين وغيرهم من المشايخ¹⁰.

ثانيا: الشيخ أبو عبد الله الشوذلي الحلوي (المتوفى سنة 737 هـ)¹¹

هو سيدي الحلوي بن سيدي موسى البريشي معروف في مجموعة من الكتابات بأبي عبد الله الشوذلي الحلوي الإشبيلي. انتقل إلى تلمسان في الفترة التي تزامنت من الناحية السياسية مع الاضطرابات والقلال التي عرفتها تلمسان كعاصمة للزيانيين، حيث دخلها المرينيون على يد أبي الحسن المريني لتصبح تحت حكمهم.

وتنسب إليه الشوذلية. وكان في أول أمره من فقهاء مرسية ثم التف حوله أمثال عزيز بن خطاب وحازم وأبي المطرف وغيرهم. والشوذلية طريقة صوفية تشبه طريقة ابن عربي إلا أنها أكثر إيجابية، وقد تورط أصحابها في السياسة وقالوا بأن العلوم الشرعية غير صحيحة في ذاتها، ولذلك وجدوا مقاومة شديدة، وحمل عليهم ابن خلدون ولسان الدين.

وقد وصفه ابن مريم في بستانه بكونه من أكابر العلماء العباد العارفين بالله. كما كني بالحلوي نسبة إلى إحدى معجزاته التي اشتهر بها والتي تمثلت في إخراج الحلوى من أصابعه وإعطائها للأطفال ويقال بأنها كنية أطلقها الأطفال عليه¹².

وأصل تسميته بالحلوي تعود على حسب الرواية الشفوية إلى هذه المقولة: "اللي شرق شرق والي غرب غرب ورأس الحلوي كعد". والإطار الذي تحكى فيه، يفيد بأن سيدي الحلوي، هو أحد أبناء سيدي موسى البريشي. حيث كان عالما بتلمسان، اشتهر بهذه الكنية التي أطلقها عليه الناس عامة في وصف بعض مناقبه ومحاسنه، وقد لازمته وأصبح معروفا بها أكثر مما هو معروف باسمه الشخصي. وتقول الحكاية التي تناقلها أصحاب الروايات الشفوية لتفسير هذه الكنية، بأن سيدي الحلوي كان يخرج الأشياء الحلوة من أصابعه ليسكت بها الأطفال ويطعم بها الجياع¹³.

وقد أصبح له شأن عظيم من جراء تلك البركات، فتمت الوشاية به إلى سلطان تلمسان الذي أمر بقطع رأسه، كما أمر بتعليقه بباب المدينة ليكون عبرة للآخرين جريا على

عادة تلك العصور. إلا أن بركات سيدي الحلوي ، ستستمر حتى بعد مقتله لأن رأسه المعلقة بباب المدينة كانت تصبح عند حلول مغرب كل يوم لتقول "اللي شرق شرق والي غرب غرب وراس الحلوي كعد" ؛ وحينما وصل خبر ذلك إلى السلطان أعطى أمره من جديد لإزالة الرأس من باب المدينة ودفنها مع جثته بالقرب من أسوار تلمسان ومن المرجح في المكان الذي قتل فيه.¹⁴

ولا نعرف متى بالضبط بني لسيدي الحلوي ضريح في المكان الذي قتل فيه أو/ودفن فيه ، وهذا الضريح لازال قائماً إلى اليوم في شمال تلمسان عند قدم باب زيري. يقع الضريح بموضع يطل على المسجد والمدرسة اللتين بنيتا عند قدومه في عهد الحكم المريني لتلمسان ، من طرف السلطان أبي عنان فارس سنة 754هـ واللتين تحملان اسمه جامع سيدي الحلوي ومدرسة سيدي الحلوي.

إلا أن بركة سيدي الحلوي كولي صالح ، ستظهر في اليوم الموالي لهذه الواقعة ، حيث سمع حارس باب المدينة وهو يعلن عن موعد إغلاق الباب في المساء (أي وقت المغرب) صوتاً يناديه "اقفل الباب أيها الحارس واخلد إلى نوم ، فلم يبق بالخارج (أي خارج الأسوار) سوى سيدي الحلوي".

استمر صوت الحلوي يقول مقولته مساء كل يوم لمدة سبعة أيام ، فاعتبر الناس بأن ذلك من المعجزات ، فتداولوا الخبر ورددوه إلى أن وصل إلى مسمع السلطان ، فقرر التأكد من الوقائع بنفسه ، وفعلاً أتى بجوار باب المدينة وسمع ما سمع وقال " لقد أردت أن أعرف ما يجري فتأكدت من ذلك". أمر السلطان على إثر ذلك ، بدفن الوزير حيا في كومة طين ، استعملت فيما بعد في إعادة بناء سور المدينة (قبالة المكان الذي قتل فيه سيدي الحلوي) ، كما أمر بإعادة الاعتبار للولي الصالح ببناء قبر له أو ضريح.¹⁵

وقد أشارت الكثير من المصادر إلى سيدي الحلوي إشارات عرضية لا تكفي لرسم صورة واضحة المعالم عن حياته ، وقد حاولنا تتبعها بشكل دقيق لكننا لم نخرج بشيء يكفي لإزالة الغموض عن بعض جوانب حياة الشيخ الحلوي.

فقد ذكره أبو حيان الأندلسي في تفسير البحر المحيط عندما تكلم عن عقيدة الحلول قائلاً: "ومذهب الحلول فشا في هذه الأمة كثيراً ، وقالوا بالاتحاد . وأكثر ما فشا في مشايخ الصوفية والفقراء في وقتنا هذا ، وقد رأيت منهم جماعة يزعمون أنهم أكابر . وحكى أبو عبد الله الرازي أنه كان فاشياً في زمانه ، حكاه في تفسيره عن بعض المرؤزيين كان يقول لأصحابه: أنتم عبيدي ، وإذا خلا ببعض الحمقى من أتباعه ادعى الألهمية. وإذا كان هذا مشاهداً في هذه الأمة ، فكيف يبعد ثبوته في الأمم السابقة انتهى وهو منقول من كتاب التحرير والتحبير ، وقد

صنف شيخنا المحدث المتصوف قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن القسطلاني كتاباً في هذه الطائفة ، فذكر فيهم الحسين بن منصور الحلاج ، وأبا عبد الله الشوزي كان بتلمسان".¹⁶

كما أشار إليه الذهبي في السير عند ترجمة الشيخ المرسي قائلاً: "ولم يكن بالأندلس في فنه مثله ، يقوم بعلم التفسير وعلوم الصوفية ، كان لو قال هذه الآية تحتل ألف وجه قام بها ، قال : وما سمعت شيئاً إلا حفظته ، قرأ على أبي عبد الله الشوزي التلمساني الصالح"¹⁷.

توفي الشوزي على الأرجح مع مطلع القرن السابع الهجري في تلمسان.

خاتمة:

إن الحديث عن الشيخين أبي مدين والشيخ الحلوي هو حديث شائق شيق ، فإن المصادر التاريخية وبخاصة كتب المناقب حفلت بترجمة مهمة عن الأول لذبوع صيته في شتى أقطار العالم الإسلامي. لكنها وفي الطرف الآخر واجهت شخصية الحلوي بصمت مطبق قد لا نجد له مبرراً فيما توافر لدينا من معلومات شحيحة جداً لا تكف حتى لرسم صورة واضحة المعالم حول هذه الشخصية.

ثبت المصادر والمراجع:

1. بودواية مبخوت وبكاي هوارية: "العلاقات الثقافية بين الدولتين الزبانية والمرينية خلال القرنين 7-9 هجريين" ، مجلة الفسطاط ، على موقع: <http://www.fustat.com>
2. التليدي عبد الله بن عبد القادر ، المطرب بمشاهير أولياء المغرب ، الرابط: دار الأمان ، ط4 ، 2003.
3. ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، مج3 ، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد. أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف ، تفسير البحر المحيط ، ج5 ، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ط1 ، 2001.
4. ابن الخطيب لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج1 ، تحقيق: محمد عبد الله عنان ، القاهرة: مكتبة الخانجي ، ط2 ، 1973.
5. الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج23 ، أشرف تحقيقه: شعيب الأرنؤوط ، بيروت: مؤسسة الرسالة ، ط11 ، 1996.
6. ابن قنفذ القسنطيني ، أنس الفقير وعز الحقيير ، اعتنى بنشره وتصحيحه: محمد الفاسي وأدولف فور ، الرابط: المركز الجامعي للبحث العلمي - مطبعة أكدال ، 1965.
7. مخلوف محمد بن محمد ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، ج1 ، القاهرة: المطبعة السلفية ، 1349هـ.
8. ابن مريم البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، اعتناء محمد بن أبي شنب ، الجزائر: المطبعة الثعالبية ، 1908.

9. المقري أحمد بن مُجَدِّد ، فنج الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج7 ، تحقيق: إحسان عباس ، بيروت: دار صادر ، 1988.

10. <http://sidimoussa-albarrich.alamontada.com/t25-topic#53>

الإحالات:

- 1- عبد الله بن عبد القادر التليدي ، المطرب بمشاهير أولياء المغرب ، الرابط: دار الأمان ، ط4 ، 2003 ، ص: 64. وقد ترجم له ترجمة كافية وافية وعليها سيكون اعتمادنا في هذه العجالة. راجع: التليدي ، المطرب ، ص: 64-81.
- 2- الزيات ، الشوف ، ص: 319.
- 3- المصدر نفسه ، ص: 322.
- 4- نفسه ، ص: 323.
- 5- مُجَدِّد بن مُجَدِّد مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، ج1 ، القاهرة: المطبعة السلفية ، 1349هـ ، ص: 163.
- 6- أحمد بن مُجَدِّد المقري ، فنج الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج7 ، تحقيق: إحسان عباس ، بيروت: دار صادر ، 1988 ، ص: 136-144.
- 7- الشعرائي ، الطبقات الكبرى ، ص: 223-226.
- 8- ابن قنفذ ، أنس الفقير وعز الحقير ، اعنتى بنشره وتصحيحه: مُجَدِّد الفاسي وأدولف فور ، الرابط: المركز الجامعي للبحث العلمي- مطبعة أكدال ، 1965 ، ص: 92.
- 9- قال عنه ابن الخطيب في الإحاطة قائلا: "كان أحد الأعلام المنقطعي القرنين في طريق كتاب الله ، وأولي الهداية الحققة ، فذ ، شهير... توجب حقه حتى الأمم الدائنة بغير دين الإسلام". ينظر: ابن الخطيب لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج1 ، تحقيق: مُجَدِّد عبد الله عنان ، القاهرة: مكتبة الخانجي ، ط2 ، 1973 ، ص: 461.
- 10- ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، مع3 ، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن مُجَدِّد بن قاسم وابنه مُجَدِّد ، ص: 426-427.
- 11- راجع: مبخوت بودواية وبكاي هوارية: "العلاقات الثقافية بين الدولتين الزبانية والمرينية خلال القرنين 7 - 9 هجريين" ، مجلة الفسطاط ، على موقع: <http://www.fustat.com>
- 12- ابن مريم البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، اعتناء مُجَدِّد بن أبي شنب ، الجزائر: المطبعة الثعالبية ، 1908 ، ص: 108.
- 13- راجع الموقع الإلكتروني التالي: <http://sidimoussa-albarrich.alamontada.com/t25-topic#53>
- 14- راجع الموقع الإلكتروني التالي: <http://sidimoussa-albarrich.alamontada.com/t25-topic#53>
- 15- المصدر نفسه.
- 16- مُجَدِّد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، تفسير البحر المحيط ، ج5 ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ط1 ، 2001 ، ص: 32.
- 17- الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج23 ، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرنؤوط ، بيروت: مؤسسة الرسالة ، ط11 ، 1996 ، ص: 316-317.